



لست ممن يصدقون أن أميركا فاشلة إلى الحد الذي حال، نيفا وستة أعوام، بينها وبين انتهاج سياساتٍ تخدم مصالحها في سوريا. ولا أصدق أن الرئيس السابق، باراك أوباما، نجح في فرض سياساته الشخصية على مؤسسة بلاده العسكرية، ودهاقنة برلماني كونغرسها، وأساتذة جامعات ومراكز التفكير والبحث فيها، التي تستشار عادة قبل أي قرار، وتشترك فيه عند اتخاذها. لو كانت سياسات أميركا محكومةً بالقدر الذي يتحدث بعضنا عنه من الفشل والعجز حيال منطقةٍ هي الأهم استراتيجياً، والأغنى نفطياً ومالياً في العالم، لما كانت الدولة الأعظم، ولما أمسكت، منذ قرن ونصف القرن، بمفاتيح السياسات والمصالح الدولية، وألزمت بقية العالم باحترام الأطر، التي تحدد أوضاع دولة المختلفة.

إذا كانت خطط واشنطن في سوريا قد استهدفت تحويل ثورتها إلى بؤرة استقطابٍ واقتتالٍ ينخرط فيها خصومها الروس والإيرانيون، ومرتزقهم والإرهابيون، وكانت قد حققت ما هدفت إليه، هل تكون خططها فاشلةً وسياساتها متخبطة؟. وإذا كانت قد قررت إطالة أمد الحرب إلى أن يتلاشى النظام العربي، ويفقد تماسكه مارياً ومعنوياً، ليسهل تفكيك دولة، وإعادة تركيبها في صيغ جديدة، تنفيذاً لاستراتيجية "الفوضي الخلاقة" التي أعلنتها وزيرة خارجية بوش الابن، كوندوليزا رايس، عام 2003، وإذا كانت الحرب قد طالت بالفعل، وأدت إلى تفكٍ خطير في كيانات العرب المجتمعية والدولية في طول منطقتنا وعرضها، هل تعتبرها فاشلة، كما دأبنا على وصفها خلال عهد أوباما؟. وإذا كانت قد رسمت خطوطاً حمراءً ألزمت مختلف القوى بالامتناع عن لعب دورٍ يتعارض معها في سوريا، وحظرت تزويد الجيش الحر بأي سلاح، يمكنه حسم الصراع من جهة، وتقييد أدوار من تورطوا في المستنقع السوري من جهة أخرى، أين يكون فشلها وضعفها وتخبطها؟. هل تجرأ طرفٌ ما وأرسل أو أوصل صاروخاً واحداً مضاداً للطائرات إلى أي مقاتل من أي فصيل يحارب النظام وإيران وروسيا؟

يعترفاليوم من بيدهم القرار الأميركي في إدارة الرئيس دونالد ترامب بأن أوباما "حفر حفرة عميقه" لن يكون من السهل على من سيليه في الرئاسة الخروج منها، في كل ما يخص الشأن السوري، أو إحداث تبدل جدي في سياسات واشنطن السورية. إذا كان هذا صحيحاً، هل تكون هنا أيضاً إزاء تخطي وفشل؟ وهل ما تقوم به العسكرياريا الأمريكية في شمال سوريا والعراق، وما أقامه أوباما من علاقات تعاون مع حزب الاتحاد الديمقراطي (الكردي) وقواته، وأشرف على تنفيذه في الأسابيع الأخيرة من ولايته، وأسس بواسطته قاعدة استراتيجية أميركية قوية في الشمال السوري، يسوغ اتهامه بالفشل والتخطي وفقدان الاتجاه؛ إذا كان هدف سياسة واشنطن في شمال سوريا والعراق يرتكز أساساً على حضور طويل الأمد يعوّضها عن فشلها في احتلال العراق، فإن عهد جورج بوش الابن، هل يكون أوباما الذي أسس هذا الحضور، وحول الصراع في سوريا إلى فرصة أمسك بقوتها، أوصلت المنطقة إلى الهاوية التي تجد نفسها فيها، ونقلتها إلى طورٍ آخر مصيرها من أيدي دولها وأبنائها، وشرع بهدد كياناتها ويفتها على أسس طائفية وقئوية، يعتمدتها النظام الأسدية وإيران وحزب الله، وكذلك داعش وجبهة النصرة، أين يكون التخطي والضعف في سياسات البيت الأبيض الأوبامي؟.

ثمة ثابت لم تحد واشنطن عنها قيد أنملة، طوال فترة الصراع السوري. وقد حرفت في كل واحدٍ منها نجاحاتٍ مفصلية، يتوجها اليوم حضور عسكري مباشر، بزداد كثافةً وديناميةً في الجغرافيا السورية، يتتجاهله، على الرغم من ذلك، من يصرّون على خرافيةٍ ترى أن أميركا تهمل الشأن السوري، وتتركه لروسيا، وعلى عدم الاهتمام بما يقوله جنرالاتها بشأن تصميمهم على إبقاء قواتهم عشرين إلى ثلاثين عاماً في سوريا والعراق، وهي فترة استبعد أن يستمر الصراع السوري الراهن خالها.

كان من المحال لأي دولةٍ، غير أميركا، تحويل ثورة داخلية ومحليه ضد نظام استبدادي إلى بؤرة تستقطب وتكتف صراعات دولية وإقليمية وعربية وسورية، لم يكن أحد غير دهاقتها يستطيع تحقيقه وإناته، وصولاً إلى إغراق إيران وروسيا والإرهاب الدولي في لجها، وقلبها إلى نقلة نوعية على طريق اقتتال شيعي/ سني متعاظم، بدأت ترعاه بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وتخلق صراعاً دولياً جديداً ضد العالم الإسلامي، عبر عنه كبار كتابها واستراتيجياتها، ما لبثت أن فجرته وأدارته باسم بلدان الشمال المتقدمة، ليس من المحمّ أن تنخرط مباشرةً فيه، كي تحكم به وتجمي منافعه بالشروط التي ستحددّها له، وأهمها تحوله إلى فوضى دموية كالتي تعيشها سوريا: الساحة الراهنة لهذه السياسة وضحيتها.

لا يتخطي الأميركيون ولا يخادعون. إنهم ينتهيون استراتيجيات تخطي سوريا، نجحت في قلب ثورة شعب صغير ضد نظامه إلى بؤرة كونيةٍ لصراعاتٍ جرت إليه القوى الأخرى. إذا كان هذا هو الفشل، فكيف يكون النجاح؟ وكيف نخرج من محرقة نجد أنفسنا فيها، لن نتخطّها إطلاقاً إذا ما واصلنا التجاهل بعد الصراع، الكوني ومتعدد المستويات والجوانب، الدائر في بلادنا، ولا دور لنا فيه غير فشلنا في تخطي متأهّلتنا عن وعيه، في حين تخترق خيوطه منذ نصف وستة أعوام العالم كلّه، بقوةٍ لا مثيل لها، سبقي ضحاياها ما دمنا عاجزين عن تخطي أوضاعنا الراهنة؟.

العربي الجديد

المصادر: